خلود العربية وعالميتها كلغة للقرآن

للأستاذ بهاء الدين الأمير.
(الرباط)

العلاقة بين الاسلام واللغة العربية قائمة ومتينة واصيلة الى درجة تكاد تجعل الامر بعيدا عن ان يكون موضوع تساؤل ، ومن الواضح ان اللغة العربية قد استفادت من الاسلام مزيتها الكبرى فى البقاء غير متأثرة بما تتأثر به لغات العالم اجمع من تبدل يقطع عبر القرون آخر تراثها عن اوله .

هذا فضلا عن استفادة العربية من الاسلام في جوانب اخرى حضارية واجتماعية وفيلولوجية . فقد استتبع انتشار الاسلام انتشار العربية تلقائيا وادى قيام الحضارة الاسلامية الى استجابة اللغة العربية لسائر اغراض هاته الحضارة فى الثقافة والاجتماع وفقه اللغة .

وقد كان شرع الله الذي انزله قرءانا عربيا وكان حفظ القرءان فى ذاته ولغته وكل ما يتعلق به من قبل الله سبحانه وتعالى بحيث لم تستطع العصور الطويلة والمؤامرات العنيدة والاحداث الجسام ان تنقص منه آية او تزيد فيه رواية ، وكانت الصلاة لا تتم الا بالقرءان العربي ، وهي عماد الدين ، وكان الاسلام داعيا دائما الى الفهم والنظر والادراك ، فقد تأتى من كل ذلك ان يكون لكل مسلم مهما كانت قوميته النصيب الكافي من الثقافة القرءانية وبالتالي من الاطلاع العربي .

لقد اختار الله بحكمه وعلمه الاسلام دينا للانسانية جمعاء ، ومر به فى مراحل من التكامل تتلاءم مع المستويات البشرية المتلاحقة ، فكان يبعث به الانبياء والمرسلين الى اقوامهم وبيئاتهم بالشكل الذي يلائمها، حتى اذا بلغت الانسانية بعلم الله وحكمه مبلغا من طاقة الجدارة المختزنة ، وحازت قسطا من قابلية الاشعاع المبدع ، شاءت ارادة الله ان يتوقف ركب النبوة والرسالات عند محمد صلى الله عليه وسلم فبعثه جلت قدرته خاتما للانبياء والمرسلين ، واخذ الاسلام منذ ذلك الحين صفة جديدة فاصبحت له علمية خاصة وعالمية ممتدة ، وكان من انسياق النواميس الالاهية وفق مقتضيات هذه العالمية ان تكون للاسلام لغة تمتد بامتداده وتخلد لخلوده وتستوعب حاجاته الحضارية فى سائر مرافق الحياة ، وهكذا جاء التلازم بين خلود الاسلام وخلود اللغة العربية .

وغني عن القول ان احكام الله جل وعلا منزهة عن الاعتباط ، فكما ان الله اعلم حيث يجعل رسالته وانه منزه عن عدم استيعاب الجدارة من كل اطرافها حين يجعل الرسالة هنا او هناك ، فكذلك الشأن في اللغة العربية التي هي لغة هاته الرسالة ، فان اختيارها كذلك منزه عن الاعتباط ، وقائم على اساس متين من جدارتها وقابليتها للنهوض بحق هذه الرسالة الخالدة نهوضا تام الكفاءة ، كامل الاستيعاب .

واما التساؤل عن انه لو لم تكن العربية لغة القرءان ، هل كان الاسلام ينتشر كما انتشر فانه من قبيل الجدل الفلسفي لان الواقع قد قام على غير ذلك على انه مما لا شك فيه ان الله لو اختار للاسلام العالمي لغة غير العربية تكون لغة قرءانه لاختارها بشكل تؤدي فيه مهمتها على النمط الذي ادته العربية لما اختارها لذلك ، فالاسلام هو الاصل والله هو الحكيم العليم القدير الجدير ، فهو اعلم بدينه وبما يحف به هذا الدين .

واننا لنلمس بوضوح وجلاء تلازما فى فترات الازدهار والانحسار الحضاريين بين الاسلام والعربية، كما نجد كل الذين حاولوا او يحاولون النيل من الاسلام او التصدي لحربه ان ينالوا من العربية ويتصدوا لحربها ، والحديث هنا مبسوط الجوانب ، طويل التاريخ ، لا يتسع له استجواب مرتجل كهذا ، ولعلنا نستطيع فى المستقبل ان نكتب فى بعض جوانبه ، فحسبنا الآن ما تقدم ، وشكرا لمكتب تنسيق التعريب ولرجاله المخلصين جهادهم ، والله غالب على أمره .

« ان هذه العربية بنيت على اصل سحري يجعل شبابها خالدا عليها فلا تهرم ولا تموت لانها أعدت من هذا الازل فاكا دائرا للنيرين الارضيين العظيمين كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء كأنها أخذة السحر لا يملك معها البليغ أن يأخذ ويدع » .

(تحت راية القرءان للرافعي ص 9)

« انما اللغة مظهر من مظاهر التاريخ والتاريخ صفة الامة . والامة تكاد تكون صفة لغتها لانها خاصتها الطبيعية التي لا تنفك عنها ولا قوام لها بغيرها فكيفما قلبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الامة واتصال الامة بها وجدتها الصفة الثابتة التى لا تزول الا بزوال الجنسية وانسلاخ الامة من تاريخها واشتمالها جلدة امة اخرى » .

(ص 46)

« انما القرءان جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة الى العربية فلا يزال اهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة او حكما حتى يأذن الله بانقراض الخلق وطي هذا البسيط ولولا هذه العربية التي حفظها القرءان على الناس وردهم اليها واوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الاسلامي ولا تراخت به الايام الى ما شاء الله ولما تماسكت اجزاء هذه الامة ولا استقامت » .

(ص 57)

« فانك لتجد المسلمين يختلفون فى كل شيء حتى فى الدين نفسه ولا تجدهم الا شعورا واحدا بالروح الدينية العربية التي مساكها الكتاب والسنة فى عربيتهما الفصيحة وهي لاسبيل الى التغيير أو التبديل فيها » .

« ولن تجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين الا وجدت له مثلها فى اللغة وان كنا لا نقول بالعكس » .

(ص 62 و 63)

« فبقاء القرءان على وجهه العربي ، مما يجعل المسلمين جميعا على اختلاف الوانهم من الاسود الى الاحمر كانهم فى الاعتبار الاجتماعي وفي اعتبار انفسهم جسم واحد ينطق لغة التاريخ بلسان واحد » . . . الخ .

« وان اعجب ما يروعنا من الجنسية العربية فى القرءان انها تابى الا ان تحفظ على اهلها تلك الصفات العربية من الانفة والعزة والصوت والقلب . وما يكون من هذا الباب الاجتماعي الذي لايزال يمنح للشعوب من مقاصير الارض » .

(اعجاز القرءان ص 93 و 94)